الأنثروبولوجية المرئية: الفيلم الاثنوغرافي والإنتاج الإعلامي الثقافي نموذجا

رحـــاب مختـــار[1] و ساسي سفيان[2]
[1] جامعة مسيلة – [2]جامعة الطارف
Dr.mokhtar78@yahoo.fr

الملخَّـــص:

لقد عرفت أدوات البحث الأنثروبولوجي تطورات عديدة بداية من الأعمال الاثنوغرافية الوصفية التي قام بها عديد الرحالة في حضارة مختلفة، إلى توظيف آلات التصوير، والاعتماد على التصوير الفوتوغرافي في تصوير مظاهر وظواهر مختلفة، و توثيق المعطيات الميدانية المحصلة من خلال المعايشة والملاحظة، ولا حقا تم استخدام أدوات أكثر تطورا أدت إلى حدوث تطور في الأنثروبولوجيا من ناحية الموضوع والمنهج ويتعلق الأمر تحديدا باستخدام وسائط تخزين جديدة إضافة إلى استعمال الكاميرا، كل هذا أدى إلى ظهور ما يسمى بالفيلم الاثنوغرافي، وسوف يسهم كل هذا فيما بعد إلى بروز فرع جديد من فروع الأنثروبولوجيا سمي بالأنثروبولوجيا المرئية.

الكلمات المفتاحية: الأنثروبولوجيا، الأنثروبولوجيا المرئية، الفيلم الاثنوغرافي، الإعلام ، الثقافة

Résumé:

Anthropologie visuelle: Film Ethnographique et la production audiovisuelle culturelle comme modèle

Les outils de la recherche en anthropologie ont connu divers développements depuis les travaux ethnographiques déscrptifs des voyageurs à travers plusieurs civilisations, jusqu'à l'utilisation des appareils photos et l'adoption de la photographie dans la prise de vues de manifestations et divers phénomènes et l'archivage des données de terrain obtenues à partir des experiences vécues et de l'observation. Plutard, des outils plus sophistiqués ont permis une évolution de l'anthropologie sur les deux plans, celui du sujet et celui de la méthode. Il s'agit plus précisément, de l'utilisation des nouveaux medias de stockage, en plus de l'utilisation de la camera. Tout cela a mené à l'apparition du film ethnographique. Tout cela également, a permis par la suite, de voir naître une nouvelle branche qui s'appelle l'anthropologie visuelle.

Les mots clés : anthropologie, anthropologie visuelle, ethnographie du cinéma, les médias, la culture.

Abstract:

Visual anthropology: Ethnographic film and cultural media production as model

Anthropological research tools have known many developments, beginning with the descriptive ethnographic works carried out by many travelers in a different civilization, the use of cameras, relying on photography to portray different aspects and phenomena, and documenting the field data obtained through coexistence and observation. More sophisticated tools have led to an evolution of anthropology in terms of subject matter and methodology, specifically with the use of new storage media as well as the use of the camera, all of which led to the emergence of the so-called ethnographic film, creating a new branch of anthropology called visual anthropology.

Key words: anthropology, visual anthropology, ethnographic film, media, culture.

مقـــــدمة:

بإطلالة تاريخية حول تطور الأنثربولوجيا نجدها قد بدأت من خلال إنجاز بحوث أو دراسات مونوغرافية " وصفية " , حيث كان يقوم الزائر الهاوي أو الرحالة أو حتى الباحث المختص فيما بعد بمجهود تجميعي ووصفي لحياة جماعية بشرية مصغرة, وذلك من خلال الكتابة عن إثنيتها وعاداتها وتقاليدها, ولباسها ونمط مسكنها ... ثم تطورت الأبحاث الأنثربولوجية شيئا فشيئا إلى بحوث مقارنة بين الجماعات والثقافات الإنسانية بغية تحديد مراكز الإبداع الثقافي الأول, أو من أجل اكتشاف مدى التشابه بين الثقافات, ومحاولة تفسير ذلك.

وتطورت الدراسات الاثنوغرافية فيما بعد, وأصبحت تعتمد على منهجية البحث الحقلي, وبروز مجموعة من الرواد الأنثروبولوجيين, وأجروا مجموعة من الدراسات الاثنوغرافية – فقام " كليف براون Rad – Broun Cliffe " بدراسة ميدانية في " جزر الأندمان " سنة 1906م, ودامت فترة دراسته الحقلية سنتين, وتقع جزر الأندمان في شمال المحيط الهندي وكانت

دراسته امتحان لجملة النظريات الأنثربولوجية, واختبار صحتها بواسطة دراسة ميدانية في مجتمع بدائي, كما برز كذلك في مجال الدراسات الاثنوغرافية الحقلية " مالينوفسكي " حيث قام بدراسة ميدانية كانت مدتها أربع سنوات (1914, 1918) وكانت دراسة لجزر " التروبرياند " " Trobriand " التي تقع في ماليزيا, وكان مالينوفسكي أول من استخدم في دراسته لغة الأهالي أنفسهم, وعاش بينهم مدة أربع سنوات حيث تقمص نظمهم وطقوسهم وشعائرهم الخاصة, وتوجهت دراسته بالتوصل إلى نظام التبادل المعروف باسم "الكولا" واستخدم في دراسته المنهج الاثنوغرافي التكاملي حيث قام بدراسة شاملة لسائر النظم الاجتماعية التي لها علاقة اتصال بنظام " الكولا ".

وكانت البدايات باستخدام أدوات بحثية بسيطة كاعتماد الكراسة الورقية والقلم، ثم تطورت شيئا فشيئا من استخدام المسجلة التقليدية، إلى توظيف التصوير الفوتوغرافي، ثم تطورت الوسائل وكذا الاهتمامات بتوظيف نتائج الدراسات الاثنوغرافية والأنثروبولوجية، من خلال انتاج ما يسمى بالفيلم الاثنوغرافي، وظلت التطورات مستمرة إلى ظهور ما يسمى بالأنثروبولوجيا المرئية من خلال الإنتاج الإعلامي الثقافي.

أولا: الإشـــــــكالية:

لقد اعتمد الأنثروبولوجيون في القرن التاسع عشر على استخدام أدوات تقنية عند قيامهم بأبحاث ودراسات حقلية وذلك من أجل تدوين ما يرونه مهما حول الجماعات والمجتمعات المدروسة ومن أبرز الأدوات التي تم الاعتماد عليها في البدايات الأولى الكراسة الورقية واستخدام القلم من أجل تسجيل وتدوين المعطيات المستقاة. وفي المراحل الأولى كان من أبرز

المناهج التي تم الاستعانة بها للقيام بالدراسات الأنثربولوجية نجد المنهج المقارن, الذي ساد فترة زمنية معتبرة ثم تبين للكثير من الأنثروبولوجيين أنه قد انتابه بعض القصور, فلم يعد المنهج العلمي الأمثل, فالمقارنة التي أجراها الأنثربولوجيون في ذلك الوقت كانت تقوم على القراءات الواسعة, ومحاولة جمع المعلومة من هنا وهناك, وخاصة ما ورد في كتب الرحالة, والمبشرين والحكام العسكريين بالمستعمرات, مما جعل من دراساتهم وأبحاثهم تتصف بالسطحية وقلة الضبط المنهجي.

وبالنسبة لأدوات ووسائل البحث الأنثروبولوجي فقد تطورت هي الأخرى، فبعدما كانت تعتمد على الكراسة وأوراق الكربون لتدوين وتخزين المعلومات والمعطيات الميدانية، وتصميم الخرائط اليدوية للمجتمعات المراد إجراء دراسات حقلية حولها، والقيام بإعداد صور عن طريق الرسم اليدوي للشخصيات وزعماء القبائل، والظواهر المشاهدة كالأسواق والحفلات والمناسبات، والمناظر السكنية, تطورت أدوات البحث الأنثروبولوجي شيئا فشيئا فاستخدمت في فترة لاحقة آلات تصوير، وآلات تسجيل، ثم لاحقا تم استخدام آلة التصوير كاميرا، واستعمال وسائط التخزين كالأشرطة، ومعدات المشاهدة كالفيديو، مما نتج عنه في مرحلة لاحقة ما سمي بالفيلم الاثنوغرافي، ثم حدثت التطورات لاحقا حتى أصبحت الأبحاث الأنثروبولوجية تستخدم وتساير جملة المبتكرات العلمية والتكنولوجية الحاصلة في عالمنا.

وإشكالية مقالنا تنطلق من التساؤل الذي مفاده ما هي أهم أدوات البحث الأنثروبولوجي التي تم الاعتماد عليها عند القيام بأبحاث حقلية من قبل الرواد الأوائل؟، وما هي أبرز التطورات التي حصلت؟، وما هي تأثيراتها على موضوعات البحث الأنثروبولوجي؟، وما دورها في نشأة فروع

أنثروبولوجية جديدة كالأنثروبولوجيا المرئية؟ وما هي فوائد هذا الفرع الجديد بالنسبة للبحث الأنثروبولوجي خاصة، وللإنسان عامة؟ وما هي المحاذير الابستيمولوجية المطروحة في هذا المجال؟

ثانيا: أهميـــة البحـــث:

إن أهمية مقالنا تمكن في :

- بلا شك أن كل فرع علمي لا بد من أن يتميز ويحوز موضوعا بحثيا خاصا، ومنهجا مميزا كذلك.
- ولدراسة وعلاج الإشكالات المطروحة فمع تحديد المنهج المختار يتم تحديد الوسائل والأدوات البحثية المساعدة في انتقـــاء المادة والبيانـــــات العلمية سيما في الأبحاث الامبريقية و الحقلية.
- إن تطور الاهتمامات الابستيمولوجية يؤدي إلى تجديد في الأدوات البحثية المستخدمة، وهذا الذي دفعنا من خلال هذا المقال لتتبع تطور أدوات البحث الأنثروبولوجي.

ثالثا: أهداف البحث:

إن من أبرز الأهداف التي نريد الوصول إلى تحقيقها من خلال هذا المقال مايلي:

- إبراز الضرورات الابستيمولوجية و العوامل الخارجية التي أثرت على تطوير أدوات البحث الأنثروبولوجي.
- التركيز على إبراز الأثر الذي أحدثه ابتكار آلة التصوير وظهور الصورة الفوتوغرافية وإحلالها محل الرسومات اليدوية، وأثر ذلك على البحث الحقلي الأنثروبولوجي.

- إبراز الأثر الذي أحدثه ابتكار آلة الكاميرا وظهور الفيلم الاثنوغرافي وبدايات الإرهاصات لظهور فرع أنثروبولوجي جديد سمي بالأنثروبولوجيا المرئية أو البصرية.
- إبراز اهتمامات الأنثروبولوجيا المرئية كميدان بحثي جديد من ناحية الموضوع والأدوات المستعملة، مع إبراز أهم المزايا العلمية، وبالمقابل المخاوف العلمية المصاحبة لهذا الفرع الجديد.

رابعا: المفاهيم :

أ- الأنثروبولوجيا

لقد تعددت الآراء وتباينت الرؤى حول تعريف الأنثربولوجيا، أو ما يسمى في التراث العربي ب"علم الاناسة" ، ومحاولة إعطاء دلالات لهذا المصطلح، وإذا أمعنا النظـــر في مصطلح "Anthropologie" الفرنسي، و" Anthropology" الانجليزي. نجد أن حضورهما في المعاجم والقواميس العربية حديث إن لم نقل معاصرا، وهذا الأمر الأخير يستوجب علينا علميا ومنهجيا استقراء المعاجم الغربية من أجل الحصول على مدلول كلمة "أنتربولوجيا".

وهذا لا يعني أن الفكر الأنثربولوجي لم يعرفه العرب من قبل، فقد كانت لهم العديد من الإسهامات القيمة والتي سنأتي على ذكرها في الفصول القادمة من هذا الكتاب، وإنما ركزنا هنا على مدلول كلمة "أنثربولوجيا" من خلال المعاجم العربية ذلك أن النشأة الأكاديمية للأنثربولوجيا كعلم كانت بالجامعات الغربية.

فإذا فحصنا قاموس le Nouveau petit Robert Dictionnaire Alphabétique et Analogique de la Langue Française. فنجد أن لفظة

أنثربولوجيا أدرجت في المعجم الفرنسي عام 1932 وتدل على علم أو وصف الإنسان.[1].

أما في اللغة الانجليزية فقد ظهر اصطلاح "أنثربولوجيا" عام 1655 في كتاب مجهول المؤلف والذي كان تحت عنوان "Anthropology abstracted" وكان الموضـــوع الرئيسي للكتاب هو الطبيعة البشرية، وضم الكتاب قسمين أحدهما تطرق لعلم النفس، والآخر لعلم التشريح.[2]

وبالتالي فمصطلح أنثربولـــــــوجيا هو تعريب لكـــــلمة l anthropologie الفرنسيةAnthropology الانجليزية، وكلا المصطلحين الفرنسي والانجليزي مشتق من اللفظتين اللاتينيتين Anthropos والتي تعني الإنسان، وكلمة logos أو logia والتي تعني منطق أو علم أو دراسة، وبالتالي فالمعنى اللفظي للاصطلاح هو علم الإنسان.

ب-الاثنوغرافيا

غالبا ما كانت تستعمل عبارتا "اثنولوجيا"، " أثنوغرافيا" في فرنسا، حتى الحرب العالمية الثانية بلا تمييز، إشارة إلى واحد من العلوم الإنسانية كان يميل حصريا إلى دراسة المجتمعات البدائية، وعندما كان يتم التمييز بينهما، كان من المتفق عليها اعتبار مهمة الاثنوغرافيا جمع المواد التي تحللها الاثنولوجيا، هناك كتابان نشرا بعد الحرب متولدين عن اختبار فكري طويل، ليعطيا الاثنوغرافيا وضعيتها: كتيب الاثنوغرافيا لمارسيل موس 1947، ومنهج الاثنوغرافيا لمارسيل غريول1957، وعندما قام كلود ليفي ستروس 1958 بنقل عبارة أنثروبولوجيا من الولايات المتحدة الأمريكية الى فرنسا في الخمسينيات من القرن الماضي فرض على الاثنوغرافيا مهمة جمع

المعطيات، وعلى الأنثروبولوجيا مهمة إجراء التحليل المقارن للمجتمعات والثقافات.[3]

ويقول غليفورد غيرتز أن الاثنوغرافيا يمكن اعتبارها مرحلة جمع المعطيات من خلال قراءة النص، أو هي تحليل نصي ذلك أن المعطيات التي يتعامل معها الاثنوغرافي هي في جوهرها أبنية تصورية متنوعة ومتعددة تحتاج إلى فهم مباشر ومتواصل يشبه الفهم الذي نستعين به في قراءة النص، فالأشكال والأنماط الثقافية يمكن دراستها وفهم معناها على أنها نصوص وعلى أنها أعمال خيالية تتألف من مواد اجتماعية. [4]

ج-الأنثروبولوجيا المرئية : Visuelle anthropologie

الأنثروبولوجيا المرئية هي فرع من الاثنوغرافيا الوصفية يجمع بواسطة الصورة معلومات عن شعوب الحاضر والماضي، تتغير الأشكال العديدة للصورة وفق العصور مظهرة الظروف التقنية لكل حقبة، وأخذت الأنثروبولوجيا البصرية اسمها مثل الأنثروبولوجيا اللفظية، من نفس الحقل النظري للعلوم الإنسانية، وكان السجال قد تناول أنثروبولوجيا النص أكثر من البصرية في الجامعات، كما أن الدراسات عن الفيلم الاثنوغرافي هي الأخرى نادرة، تركز هذه المعاملة المجحفة بحق الأنثروبولوجيا البصرية على فكرة مسبقة لا أساس لها تعتبر أن النصوص المكتوبة تقدم معلومات غنية تفوق ما قد تأتي به الصور.[5]

خامسا: التصوير الفوتوغرافي بدايات وإرهاصات أنثروبولوجيا غير كلاسيكية

إذا كانت الدراسة الميدانية التي يجريها الباحث الأنثربولوجي, أثناء قيامه بدراسة ظاهرة ما في مجتمع ما في زمن ما, فإن هذه الدراسة الميدانية,

شبيهة, بالتجربة التي يجريها الباحث في المخبر, وصغت هذه المقارنة لتبيين ما للدراسة الميدانية من أهمية في الوصول إلى قوانين أو نظريات صحيحة, وبلا شك فأثناء القيام ببحث ميداني يقوم الباحث بتدوين وتسجيل ما يحتاج إليه من معطيات ومعلومات من ذلك الميدان, وقد تعددت الوسائل المستخدمة في تقيد وتدوين المعطيات الميدانية, فكان الباحث فيما مضى يعتمد على التدوين الكتابي, بالكتابة على كراساته المعدة, ثم تطور الأمر, فلما ظهرت الوسائل التكنولوجية, واكب البحث الأنثربولوجي ذلك, فاستخدم الباحث آلة التسجيل, وآلة التصوير الفوتوغرافي, وآلة الكاميرا ...

ويظهر الاطلاع على التراث النظري لعلم الأنثربولوجيا أن بدأ استخدام التصوير الفوتوغرافي كأداة ميدانية, قد استند إلى الصور الفوتوغرافية يمكن أن تحل محل أو تكمل التدوين الكتابي الذي يهدف إلى وصف ما تدرسه, وقد رأت " مارغريت ميد ": أن التغيرات التكنولوجية التي أدت إلى اختراع الكاميرا قد ساعدت الأنثربولوجي لأن يعتمد على أدوات تجعله يسجل ما هو موجود في الواقع الذي يدرسه دون الاعتماد على ذاكرته فحسب, ومن ثم فقد اعتبرت الصور الفوتوغرافية مصدرا موثوقا له وزنه في جمع المعلومات الميدانية والبيانات الأولية, غير أنه لما استخدمت الصور الفوتوغرافية كوسيلة لجمع المعلومات من الميدان وتوثيق وتسجيل المشاهدات والملاحظات ظهرت آراء متضاربة حول هذا الأمر, فهناك من استحسن الأمر وأيده, وهناك طرف ثان عارض الأمر.[6]

ولتأكيد ما سلف ذكره يمكن القول أن آلة التصوير وسيلة نافعة ولا غنى عنها لجمع المعلومات في الدراسات الحقلية، فكثير من العلماء ضمنوا تقاريرهم عن دراساتهم الحقلية صورا فوتوغرافية عن الجوانب المختلفة للحياة الاجتماعية، ويختلف عدد الصور الفوتوغرافية المستعملة في التدليل

والتوثيق من تقرير بحث لآخر حسب ما يراه الباحث مناسبا، فمن خلال بعض الأبحاث الحقلية الأنثروبولوجية كان توظيف الصور الفوتوغرافية متباينا، فمالينوفسكي مثلا نجده يضمن واحدا وتسعين صورة في كتابه حول الحياة الجنسية في جزر التروبرياند، بينما اشتمل كتاب أ. فريدل خمس صور فقط عن قرية فاسيليكا.(7)

ومن أبرز مزايا الصور الفوتوغرافية عند القيام بأبحاث حقلية أنثروبولوجية أنها تفيد في إنجاح المقابلات، وذلك من خلال توظيفها كأداة ينطلق من خلالها التواصل الأولي بين الباحث والإخباري، خصوصا لدى فئة الإخباريين الذين يتحرجون من طرح الأسئلة المباشرة من قبل الباحث ولا يحبذونها، كما يمكن أن توظف الرسومات أو الصور في عمليات التحليل السيكولوجي، من خلال الاختبارات الاسقاطية التي يجريها الباحث باستخدام صور معينة ومحددة ومناسبة للغرض الذي يريد الوصول إليه، ذلك أن اطلاع الإخباري على الصور من قبل الباحث، سيجعله يتحدث إليه عما توحي به تلك الصور بالنسبة لهذا الإخباري، وتكرار مثل هذه العملية مع عديد الإخباريين وبعض أفراد مجتمع البحث يفيد في استخلاص الكثير من البيانات والتفصيلات المتضمنة في تلك الصور من وجهة نظر المبحوث.

وللتدليل على صحة ما نقول يمكننا عرض تجربة الأنثروبولوجي المصور جون كولييه والذي كان عضوا في دراسة حقلية عن عملية التحضر بين الهنود الأمريكيين في منطقة خليج سان فرانسيسكو، وكان المطلوب منه تقديم وصف اثنوغرافي للمناطق التي يعيشون فيها، وقام بمصاحبة أحد الباحثين بتصوير 22 منزلا لأسر من قبائل مختلفة من داخلها، فكان يلتقط صورا عديدة لكل مكان في الحجرات وفي المطبخ مركزا على نوع الأثاث والأجهزة المستخدمة وطريقة ترتيب المنزل، مع تصوير أفراد العائلة أيضا

خلال أعمالهم العادية، وبعد الانتهاء من عملية التصوير شارك أيضا في عملية تحليل لمحتويات الصور على أساس استكشاف مدى ارتباط السكن بعاداتهم وتقاليدهم واتجاهاتهم بالنسبة للثقافة الأمريكية ومدى تأثر نسقهم القيمي بهذه الثقافة، وكانت المادة المستخلصة من تحليل الصور تقارن بما يتم الحصول عليه من بيانات خلال المقابلات والملاحظات الاثنوغرافية.[8]

سادسا: الفيلم الاثنوغرافي ملامح بارزة لأنثروبولوجيا مرئية

في الوقت الذي ظهرت فيه السينما العادية, ظهر معها التصوير الاثنوغرافي, غير أن هذا الأخير تعرض لمجموعة من المشكلات بسبب طبيعته الخاصة, حيث تحول على يد بعض المخرجين إلى أداة جديدة للدعاية السياسية, حيث لم يصبح لهذه الأفلام دور مفيد, وأصبحت السينما أداة فعالة لدعم ومساندة الأيديولوجيات من خلال بعض الصور المملة والخطب الطويلة. [9]

ومن الأسباب التي أدت إلى ظهور الفيلم الاثنوغرافي حدوث تغيرات مهمة, وتغير الأحوال والظروف العالمية السائدة, حيث تغيرت الأيديولوجيات, وتقدمت منجزات الحضارة, مما تولد عنه بروز أفكار وأصداء جديدة في الساحة العالمية, وصار الكثير من الأنثربولوجيين يؤمنون بضرورة الإسراع, لإنشاء أرشيفات ضخمة للأفلام الأثنوغرافية التسجيلية ولتقديم مراكز للاستشارات السينمائية لدعم التفاهم, والاعتراف المتبادل بين المجتمعات الإنسانية, والأمل في ذلك كبير أن يتوقف اتجاه المجتمعات الغربية نحو الاستعمار الثقافي والديني والاقتصادي وأن يؤدي ذلك أيضا إلى دعم مواطن القوة وعناصر الثراء في كل ثقافة ولدى كل جماعة إنسانية, مما

يؤدي في الأخير إلى التقليل من الاتجاه العنصري, ويحصل التقارب والتحاور أكثر بين الجماعات الإنسانية.[10]

ويرى بعض المختصين أن هناك جزء من المستندات يمكن ويجب أن يتم جمعه بشكل بصري، يضم الصور الاثنوغرافية الرسم والتصوير والأفلام وتسجيلات الفيديو ومستندات المساحة والخرائط، ومن النادر أن يستطيع باحث ميداني الإحاطة بكل هذه التقنيات، أو حتى امتلاك تجهيزاتها الضرورية لكونها غالية الثمن، ولكن هناك حدا أدنى ضروريا يتألف من آلة تصوير مناسبة ومسند للرسم وبكرة مترية، ويتيح المسند ومقياس الطول وضع رسوم عن الأشياء ومخططات عن أبنية أو أماكن أو مواقع، وغالبا ما يؤدي البحث الميداني بصورة طبيعية إلى إنتاج معلومات جديدة يجب أن تعرض بشكل تقرير بحث، أو أطروحة، أو رسالة، أو منشورة، أو أفلام.[11]

و هناك من انتقد الفيلم الاثنوغرافي من خلال علاقته بالأنثروبولوجية الأكاديمية، وذلك بتسجيل مجموعة من التحفظات التي يرتقي البعض منها للطعن في موضوعية ومصداقية العمل المنتج، خصوصا ما كان ذا صلة منها بهوية الباحث الأنثروبولوجي، وطبيعة المنهج الأنثروبولوجي الأسلم.

وفي هذا المضمار نجد ردود ذات فائدة وتصويبات ذات قيمة قدمها جون روش مدافعا فيها عن جدوى وفائدة الفيلم الاثنوغرافي والسينما الاثنوغرافية، من خلال كتابة السينما الاثنوغرافية، فهو يرى أن الجزئيات التي لها صلة بالحدث وقت وجوده تساهم في بناء جانب من الحقيقة، وإذا تعرض الجزء المتبقي إلى عمليات إعلامية تقنية معينة كالقطع وإجراء المونتاج، ولكن يجب التركيز على الغاية المراد الوصول إليها وهي قول وإظهار الحقيقة، هذه الحقيقة التي تتطابق مع ما تظهره عدسة الكاميرا، دون أن ننسى ماسك الكاميرا، وزمن التقاط الحدث، وكذا المبحوثين والناس المتواجدين في ذلك

الزمن الذي أخذت فيه الصورة، إنها تعبير عن وجودهم في المكان والزمان وتبرز علاقات البعض بالبعض.

ولإبراز الفوائد القيمة للفيلم الاثنوغرافي في مجال البحث الاثنروبولوجي تحديدا وفي المجال العلمي عامة، وفي مجال خدمة الإنسان عموما فانه يمكننا القول أن الفيلم الاثنوغرافي قد وفر أسباب الحياة والاستمرارية لعلم الأنثروبولوجي، وكذلك للعديد من الظواهر والثقافات والعناصر الاجتماعية، والمناظر ذات الصلة بالإنسان من الزوال، كما طور ونمى العديد من فروع المعرفة الأخرى، كما ساهم في إرساء أواصر الصداقات والتعارف بين الشعوب والثقافات، ودعم الحوار والإخاء الإنساني كل هذا عن طريق تسويق الصورة والفيلم الاثنوغرافي من خلال الفيديو، أو الأقمار الصناعية، أو شبكات التواصل الحالية.

ومن التجارب الناجحة في مجال الفيلم الاثنوغرافي يمكننا التطرق للجمعية الفرنسية للأنثروبولوجيا المرئية على سبيل المثال لا الحصر، فقد تأسست الجمعية الفرنسية للأنثروبولوجيا المرئية عام1988 وكانت من أبرز طموحاتها بناء مكتبة سينمائية مرئية للأفلام الاثنوغرافية، من خلال حفظ وتخزين نسخ أصلية، وتخصيص نسخ للاستخدام والاطلاع، مع برمجة حلقات منتظمة للمشاهدة، كما أقامت علاقات مع المعاهد والكليات بالجامعة، إضافة إلى المتاحف وغيرها من المؤسسات الأخرى ذات الصلة، والتي كانت في حاجة لإعارة أو شراء نسخ من الأفلام الاثنوغرافية، وهذا كله يخدم تخصص الأنثروبولوجيا، كما يزيد من فعالية وأهمية الفيلم الاثنوغرافي.

سابعا:الأنثروبولوجيا المرئية : ميدان بحثي جديد في ظل أدوات تكنولوجية أكثر تطورا

يقال أن الصورة تساوي ألف كلمة" عبارة شائعة وإن كانت أكثر تداولا وأهمية ودلالة بالنسبة للعاملين في ميادين بعينها كالإعلام والفنون ذات الصلة بالثقافة والإدراك البصري.ومع التطور التكنولوجي والمعرفي اكتسبت العبارة السابقة، التي يرجع البعض أصلها لحكمة صينية قديمة، أبعادا أوسع وأكثر عمقا لتتضاعف قيمة الصورة مائة ألف مرة ولتصبح العبارة "الصورة تساوي مليون كلمة"، مع ملاحظة إن مضاعفة قيمة الصورة مرهون بما تقدمه الصورة من مفردات الخطاب البصري، وبأسلوب إدراك المتلقي لها وحالة التراكم المعرفي التي تشكلها مجموعات الصور والتي تشكل في النهاية جزءا لايستهان به من الوعي والتفكير والمعرفة الإنسانية،كذلك ففي ذات السياق (دراسة العلاقة بين الصورة والعلوم الإنسانية)، حيث أقيمت مناظرات حول الإنتاج المرئي في الشرق الأوسط، التي عرضت للصورة وعلاقتها بعلم الانثروبولوجي والتأريخ والتوثيق ـــ ويشير بعض المختصين والباحثين إلي أن الثقافية البصرية أصبحت جزءا مهما من علوم الإنسانيات، حيث يمكن توظيف الصورة والفيلم الوثائقي ليصبح أداة للتحليل الاجتماعي والتاريخي والتوثيق. (12)

تعتبر الأنثروبولوجيا المرئية هى أحد فروع علم الاجتماع الإنساني، بدأ منذ منتصف *1990* مع انتشار وسائل الإعلام الجديدة، أى مع دراسة التصوير الفوتوغرافي وإنتاج الأفلام الإثنوغرافية، وقد يستخدم أحيانا كمصطلح بالتبادل مع الأفلام الإثنوغرافية، و تشمل الأنثروبولوجيا البصرية أيضا الدراسة الأنثروبولوجية للتمثيل البصري، بما في ذلك مجالات مثل الأداء، والمتاحف، والفن، و إنتاج وسائل الإعلام، و يتم تضمين التمثيل

المرئي من كل الثقافات، مثل sandpaintings، والوشم، والمنحوتات والنقوش والوحات فى الكهوف، سكريمشو، والمجوهرات، و اللغة الهيروغليفية المصرية القديمة ، واللوحات والصور الفوتوغرافية و التى تعتبر محور الأنثروبولوجيا البصرية. كما تدرس رؤية الإنسان ،وعلم وظائف الأعضاء لها، علاوة على دراسة خصائص وسائل الإعلام المختلفة، والعلاقة بين الشكل والوظيفة، وتطور التمثيل المرئي ضمن الإطار الثقافى ككل، وتعتبر الطرق التي تربط التمثيل المرئي بالثقافة والمجتمع هي الموضوعات المركزية فى علم الأنثروبولوجيا المرئية[13]

ويهتم علم التصوير الوثائقي بمواضيع الثقافة المادية: أدوات، معدات البيت والأثاث، ألعاب، هندسة، لباس، تحف فنية، مثل مواضيع الممارسة الدينية، لكن أيضا بصورة الإنسان نفسه، وبمحاولاتها تبيان العلاقات بين البشر، تخلت الأنثروبولوجيا البصرية عن بعدها المادي الحصري لكي تبلغ دائرة الرمزية، وهذا ما يصح أيضا عن الجمادات، فهي قد تحمل دلالة وقوة رمزيتين قد لا يكشفهما شكلها الخارجي، هكذا تستطيع الأنثروبولوجيا البصرية بلوغ بعد سيميائي وجمالي وراء الأشياء السطحية وبالتالي يقع عمل الأنثروبولوجي على الصورة في مفترق العلم والفن.[14]

تستخدم الأنثروبولوجيا المرئية كل أدوات و وسائل المعلومات المعاصرة وفن السينما التى تنطوى على جوانب إنسانية. لتكون واحدة من أكثر الوسائل فعالية لمنع الصراعات العرقية والدينية. وتهدف إلى الحفاظ على العديد الصور من للثقافات السائدة أو التى فى سبيلها إلى التلاشي، بحيث تبين خصوصيتها أو جوهر عالميتها، وجوانب الحوار أو الصراع بينهما

فالأنثروبولوجيا المرئية ذات طبيعة تركيبية من الجوانب التعبيرية فى الفن المعاصر والأفكار الإنسانية فى الثقافات المختلفة " فالسياق التاريخي والثقافي والاجتماعي ، مؤشرات دالة على القيمة الوثائقية للمكونات البصرية". ونعتبر الانثروبولوجيا البصرية ذات فائدة ليس فقط للمهنيين ولكن أيضا لدائرة أوسع من الأفراد المولعين بفهم مصائر عائلاتهم ، شعوبهم، والعالم عبر التاريخ .

لقد قدمت الوسائل التكنولوجية الحديثة, كآلات التصوير, والتسجيل الصوتي, وآلة الكاميرا الكثير من الفوائد, فقد كان الأنثربولوجيون فيما مضى, يصعب عليهم إلى حد بعيد, دراسة العديد من المواضيع المهمة, كالنقوش الأثرية, الزخارف, والتزيينات المعمارية, أشكال الحلى, أنواع الملابس, ولكن بتوفر الوسائل التكنولوجية الحديثة, صار ميسورا تصوير هذه العناصر, وإعادة ملاحظتها مرات عديدة, كما ساعدت آلات التسجيل المصور, التقاط الحوار كاملا وحيا في الوقت ذاته, حيث يساعد الباحث على ملاحظته كلما أراد, مما يزيد من دقة عملية التحليل, ورصد العناصر, والتفاصيل الدقيقة التي يصعب عن العين المجردة ملاحظتها.

وأهم ما تنصح به جمعيات أخلاقيات البحث الحقلي الأنثربولوجي أن تستخدم هذه الوسائل, بطريقة أخلاقية, حيث تتماشى وقيم المجتمع.

نظرا للتقدم الهائل والسريع الذي حققته البشرية في مجال تكنولوجيا الاتصال ونظم المعلومات وحدوث" الثورة المعلوماتية"، صار الإنسان يعيش ما يسمى بعصر المعلوماتية، وإذا كانت العلوم الطبيعية بشتى فروعها المختلفة قد استفادت من التطور التكنولوجي بمختلف أنواعه، وحققت انجازات واضحة، فان العلوم الاجتماعية قد نالت ونالها شيء منه أيضا، ويبرز هذا في العديد من الجوانب نذكر منها:

أ- مرحلة تسجيل موضوع البحث:

وذلك من خلال اطمئنان الباحث إلى أن الموضوع المراد تسجيله ليس من قبل الموضوعات البحثية المكررة، وقد يكون موضوعه المسجل من الجدة بمكان أي لم يسبقه إليه الآخرون.

ب- مرحلة المسح والإعداد النظري:

فقد أصبح بمقدور الباحث أن يتحصل على قوائم بيبلوغرافية رقمية بالأبحاث والمؤلفات المنشورة في المجال الذي يبحث فيه، كما بإمكانه أن يحصل ما يشاء من المادة العلمية المتعلقة بموضوع البحث، وهذا ما يوفر الجهد والوقت للقيام بقراءة المادة العلمية المتاحة ومناقشتها، وتوظيف ذلك لخدمة العمل الميداني، من خلال التركيز على جمع المادة الحقلية وتصنيفها وتحليلها من أجل الوصول إلى نتائج دقيقة.

ج- في مرحلة الدراسة الحقلية:

وهذا هو مرادنا ففي هذه النقطة حيث نلاحظ أن وسائل جمع المادة العلمية قد عرفت تطورا كبيرا، خاصة ما تعلق منها بأجهزة التصوير الفوتوغرافي، والفيديو، التصوير السينمائي، وأجهزة التسجيل الصوتي، واستخدام هذه الوسائل يتطلب اكتساب مهارات فنية متخصصة.

وهذا ما يستوجب علينا في أقسام الدراسات الاجتماعية أن ندرج هذا الأمر ضمن اللوائح والبرامج تحت مسمى المقاييس التكنولوجية أو مقاييس الإعلام الآلي والتكنولوجيا أو ضمن مقياس تقنيات البحث الأنتروبولوجي الميداني، وذلك من أجل تدريب الباحثين على امتلاك هذه المهارات وتعلم أساليب حفظ وعرض المادة الميدانية باستخدام الحاسب الآلي والوسائط المتعددة.

د- مرحلة إدخال المادة الحقلية ومعالجتها:

وذلك من خلال معالجة المادة الميدانية الكترونيا، والوقوف على أدق أشكال العلاقات والارتباطات بين عناصر المعطيات الميدانية وإبراز ما تتضمنه من دلالات، فهناك جيل متطور جدا من الحواسيب الآلية له سعة عالية بحيث يمكننا من استخدام برامج إحصائية متطورة مثل برنامج spss والأخذ بهذه التكنولوجيا المتطورة في الأبحاث الاجتماعية سيساعد الباحثين على تقديم إبداعات جديدة في مجال التحليلات العلمية للظواهر الاجتماعية.

هذا فيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية عموما أما بالنسبة للبحث الأنتروبولوجي فيمكننا القول أن المادة الاثنوغرافية قد أصبح بالإمكان جمعها وتسجيلها ميدانيا بوسائل تكنولوجية متقدمة، وإدخاله في الحاسبات الآلية مع الحفاظ على خصائصها من حيث الشكل واللون، بل إن هذه المادة قد أصبح من السهل إدخالها إلى أجهزة الحاسوب حية بالصوت والصورة والحركة على هيئة شرائط فيديو وأفلام سينمائية متحركة وكمادة مختزنة في الحاسب، حيث أصبح بالإمكان معالجة هذه المادة وفقا لبرامج معينة تحدد طبيعة هذه المعالجة وأبعادها ومستوياتها، وقد يسترشد الباحث في تصميمه لبرنامج المعالجة بالأبعاد الأربعة التي تكون في مجملها وحدة المنهج في الأنتربولوجيا الثقافية، وتتمثل هذه الأبعاد في البعد الزمني أو التاريخي، البعد المكاني أو الجغرافي، البعد السوسيولوجي، والبعد السيكولوجي أو النفسي.[15]

وما ينطبق على المادة الميدانية الخاصة بالثقافة في بعدها المادي فبالإمكان أن ينطبق على عناصر الثقافة في بعدها اللامادي.

ومن أبرز **الإفادات التي حصلتها الدراسات الأنتروبولوجية المرئية من التطورات التكنولوجية** الحديثة فبالإضافة إلى عملية الجمع، والإدخال

والمعالجة للمعطيات الميدانية –كما ذكرنا آنفا– نجد الاستفادة من توظيف الآليات التكنولوجية للقيام بالأعمال الآتية:

- النقل والتبادل: أي تبادل المادة الحقلية بين العديد من الباحثين في جامعات مختلفة وحتى في بلدان مختلفة أيضا، حيث يمكن هذا من الاطلاع على الكثير من العناصر الثقافية الخاصة بشعوب العالم قاطبة.
- إجراء التحليل المقارن: ذلك أن المقارنة من المعالم البارزة في المنهج الاثنوغرافي، حيث يتمكن الباحث الأنتروبولوجي من خلال المنهج المقارن من الوقوف على الأنماط الثقافية العامة التي تشترك فيها ثقافات الشعوب في إطار الثقافة الإنسانية العامة.
- التمكن من إنشاء أرشيفات وبنوك متطورة لحفظ عناصر ثقافة الإنسانية .
- هذا سيساعد بلا شك الباحثين خصوصا فيما يخص دراسة تاريخ الثقافة، التغير الثقافي، تحليل علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين الثقافات....
- الاستشراف: فما كان ينظر إليه في الزمن الماضي أنه من قبيل "بعيد المدى" ففي ظل التطور التكنولوجي أصبح عكس ذلك، فأصبح بالإمكان الاشتغال على الدراسات الاستشرافية من أجل نظرة واعية لأحداث المستقبل المتوقعة.

ثامنا: تطوير أدوات البحث الأنثروبولوجي في الجزائر بين الآمال والتحديات:

يتم تسجيل البيانات في البحث الأنثروبولوجي باستخدام البطاقات أو المذكرات بمعرفة الباحث، وتوجد عدة طرق لعملية استخدام البطاقات في تسجيل البيانات الحقلية، وهذه العملية تتم بعد عودة الباحث من جولته أو بعد انتهاء المقابلة أو إجراء الاختبارات، والتي تسجل خلالها البيانات في مذكرة عادية لحين تفريغها في بطاقات أعدت لهذا الغرض، ومن أساليب التسجيل في هذه البطاقات عمل مجموعات صغيرة منها تضم كل مجموعة ست أو سبع بطاقات مثلا، وتوضع أوراق كربون بين الأصل والصور الباقية لعمل نسخ منه عند الكتابة، فإذا استغرقت كتابة بيانات اليوم ثلاثين أو أربعين مجموعة مثلا من هذه الأوراق توضع للمجموعات أرقام مسلسلة، ويسجل في أعلى كل أصل اليوم والتاريخ والزمن ومكان الملاحظة أو المقابلة واسم الإخباري أو الأشخاص المتصلين بالمعلومة ونوع السلوك الملاحظ أو موضوع المقابلة وغير ذلك من البيانات التي يرى الباحث إضافتها لأن هذا يساعد على عملية تصنيف البيانات والرجوع إليها فيما بعد[16]

وإذا أردنا أن نبرز التمايز الأساسي للبحث الأنثربولوجي عن عمليات المسح التي تمارس في بقية الميادين فالأمر لا يتعلق بموضوعات البحث, من دراسة أو إجراء بحث حول المدنية, أو السلطة, أو الاقتصاد, أو الحياة الدينية, وهذه الموضوعات التي يدرسها عالم الاجتماع والسياسة, والاقتصاد ... , كما لا يتعلق مرة ثانية, بتطبيق المناهج البحثية, أو المداخل, أو المقاربات, سواء كانت بنيوية أو وظائفية هذه الأخيرة التي غالبا ما تكون مشتركة بين العلوم, وإنما الأمر يتعلق بالشيء الذي يميز البحث

الأنثربولوجي, هو تلك الحميمية الوثيقة التي تنشأ بين الباحث وجماعة أو منطقة أو طائفة سياسية أو لغوية أو سكنية, عبر التواصل القائم خلال الدراسة وينشأ ذلك التواصل القائم بفعل الإقامة الطويلة المفروضة على الباحث في بيئة موضوعه الأنثربولوجي. (17)

ومع الآمال العريضة والتفاؤلات الواسعة السالفة الذكر في ثنايا هذا المقال هناك مجموعة من الأسئلة تطرح نفسها على واقع البحث الأنتروبولوجي في الجزائر نذكر منها:

- هل لدينا باحثين مختصين مدربين يجمعون بين التخصص الأنتروبولوجي والقدرة على توظيف تكنولوجيا الاتصال ونظم المعلومات، والقيام بإدخال ومعالجة وتبادل المادة الحقلية.
- هل توفرت لدينا على مستوى جامعاتنا بالخصوص البنية الأساسية المعلوماتية، وهل هي في متناول الطلاب الباحثين.
- هل المادة العلمية الأنتربولوجية متوفرة ومجموعة بحيث تسمح بإنشاء قواعد بيانات أو أرشيفات أو بنوك معلومات أنتروبولوجية.
- هل تحققت لدينا أدلة عمل حقلي أنثربولوجي لتنظيم عمليات الجمع الميداني وتوجيه الدراسات الحقلية وترشيد جهود الباحثين.
- هل هناك قدرة على ربط معاهدنا ومخابر البحث بشبكات المعلومات الدولية.
- هل يوجد دليل موحد للمفاهيم والمصطلحات الأنتروبولوجية خصوصا ما تعلق بثقافة المجتمع الجزائري، وذلك من أجل إيجاد إطار ومرجع لفهم وتحليل وتفسير العناصر الثقافية لمجتمعنا.

الخـــــاتمة:

في ختام هذا المقال نأمل أننا حققنا الأهداف التي أنطلقنا منها من خـــلال تتبع التطور الذي حصل في أدوات البحث الأنثروبولوجي، وما تولد عنه من اهتمامات بحثية أدت إلى ظهور فروع جديدة فـــي مجـــال الأنثروبولوجيـــا، كالأنثروبولوجيا المرئية، وما أثارته من هـــواجس منهجيـــة فـــي علاقتهـــا بالأنثروبولوجيا الأكاديمية، و إتاحة فرص تفكك وحدة التخصص وتماسكه، وإشكالية الوصف المحايد، وإشكالية الوصف بدون نظريـــة، وغيرهـــا مـــن المخاوف الأخرى، غير أنها لاقت استحسانا وترحيبا ليس فقط فـــي أوســـاط الأنثروبولوجيين فحسب ولكن في الأوساط العلميـــة بصـــورة عامـــة، هـــذا بالإضافة إلى ما قدمته الأنثروبولوجيا المرئية من مزايا خدمة للإنسان عامة، من خلال الدعوة لتعارف الشعوب والثقافات وإخراج النظرية الأنثروبولوجية من هيمنة المركزية الأوربية، هذا بالإضافة إلى حفظها للكثير من العناصـــر الثقافية والاجتماعية المهددة بالزوال، هذا بالإضافة إلـــى تحريـــك المجـــال الإعلامي وإضفاء حيوية عليه بمنتوجات ومعطيات حقلية ذات ميزة وتميـــز، من خلال الأفلام الاثنوغرافية المنتجة وكذا الملتقيات والمتاحف الافتراضية التي أصبحت فضاء ثقافيا مفتوحا ومتاحا للإنسانية عامة من خلال وســـائل ووسائط الاتصال المعاصرة.

ومن أبرز النتائج والتوصيات التي يمكننا صياغتها في ختام مقالنا هذا:

- لقد عرفت أدوات البحث الأنثروبولوجي تطورا مســـتمرا كتوظيـــف آلات التصوير، والاعتماد على التصوير الفوتـــوغرافي فـــي تصـــوير مظاهر وظواهر مختلفة.

- توثيق المعطيات الميدانية المحصلة من خلال المعايشة والملاحظة بصفة دقيقة ومحايدة بواسطة الأدوات التكنولوجية الحديثة مما يجعل البيانات المحصلة من الميدان بعيدة عن التحريف والتزيف.
- تم استخدام أدوات أكثر تطورا أدت إلى حدوث تطور في الأنثروبولوجيا من ناحية الموضوع والمنهج ويتعلق الأمر تحديدا باستخدام وسائط تخزين جديدة إضافة إلى استعمال الكاميرا.
- كل الذي سبق ذكره أدى إلى ظهور ما يسمى بالفيلم الاثنوغرافي، هذا الأخير الذي يسهم فيما بعد إلى بروز فرع جديد من فروع الأنثروبلوجيا سمي بالأنثروبولوجيا البصرية، أو الأنثروبولوجيا المرئية.
- تساهم الأنثروبولوجيا المرئية في علاقتها ببعض الفروع المعرفية الأخرى خصوصا الأنثروبولوجيا الثقافية في تطوير البحث خصوصا ما تعلق بالجانب الابستيمولوجي من خلال إضفاء الموضوعية.
- من خلال الأنثروبولوجيا المرئية يتمكن المجتمع من حفظ مكونات الحياة الثقافية والاجتماعية من خلال أرشيف مرئي مما يمكن الأجيال من التواصل دون الانقطاع، بالإضافة إلى ترسيخ عناصر الهوية الثقافية لدى أفراد المجتمع، ويكسب المجتمع هوية مجتمعية خاصة تمكنه من الصمود والاستمرارية خصوصا في زمن العولمة الذي نعيشه.
- تسهم الأنثروبولوجيا المرئية في تنشيط النشاط السياحي داخل المجتمع وتدعيم الترويج له خارجيا، كما تسهم في انتعاش الصناعات الثقافية، وكلاهما من الأنشطة التي تعول عليها العديد من البلدان لجلب الفائدة للاقتصاديات المحلية.

المراجع و الهوامش

1- le Nouveau petit Robert Dictionnaire Alphabétique et Analogique de la Langue Française. Paris .France . Juin 1996;p90
2- Winick,c, Dictionary of Anthropology Littlefield Adams, U.S,A,1961,P28.
3 - Pierre Bonte et Michel Lzard, Dictionnaire de l ethnologieet de l'anthropologie, Quadrige\PUF, 4ème édition,2010.p293-24
4- Clifford Geertz:Ici et la bas; l anthropologie comme auteur ;traduit de l anglais par Daniel le Memoine; 1ere édition Métailié;Paris;1996,p29
5- Pierre Bonte et Michel Lzard, Dictionnaire de l ethnologieet de l'anthropologie, Quadrige\PUF, 4ème édition,2010.p293-294
6- محمد الجوهري وآخرون: الأنثربولوجيا الاجتماعية, قضايا الموضوع والمنهج, دار المعرفة الجامعية, مصر, 2006م، ص355.
7- علي محمود إسلام الفار: الأنثروبولوجيا الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1976، ص.423
8- فتحية محمد إبراهيم وآخر: مدخل إلى مناهج البحث في علم الإنسان" الأنثربولوجيا ", دار المريخ, الرياض, السعودية, 1988م ،ص211.
9- محمد الجوهري وآخرون: الأنثربولوجيا الاجتماعية قضايا الموضوع والمنهج, دار المعرفة الجامعية, مصر, 2006م.ص.321
10- محمد الجوهري وآخرون: نفس المرجع, ص221 ،.222
11- فيليب لابورت–تولرا : اثنولوجيا أنتروبولوجيا: تر: مصباح صمد, المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع 1423ه/2004، ص382، ص.386
12- www. digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial
تم الاطلاع بتاريخ 22 جويلية 2014
13- www. neweducators-.blogspot.com
تم الاطلاع عليه بتاريخ 22 جويلية 2014
14- Pierre Bonte et Michel Lzard, Dictionnaire de l ethnologieet de l'anthropologie, Quadrige\PUF, 4ème édition,2010.p294
15- محمد الجوهري:الأنثربولوجيا الثقافية، دار المعارف، القاهرة،"د.ت" ص181.
16- فتحية محمد إبراهيم: المرجع السابق، ص180، ص.181
17- فليب لايورت – تولرا, وآخر: المرجع السابق، ص373.
18-Sarah Pink, The future of visual anthropology, Routledge,U.S.A,2006.